

الاصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للتعليم المفتوح فى الجامعات

أ . د / محمد سيف الدين قهسى *

تقديم :

شهدت المجتمعات الانسانية منذ النصف الثانى من القرن العشرين تغيرات عنيفة إقتصادية واجتماعية وثقافية لم يشهدها العالم من قبل . ولعل أهم عوامل هذه التغيرات التى هى أشبه بالثورة الشاملة التقدّمات المعرفية والتكنولوجية التى غيرت تماما من نمط الحياة والعمل بالنسبة للأفراد والمجتمعات .

لقد كانت الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ نهاية العالم وبداية لعالم جديد ، نهاية لعالم كانت المحافظة و صيانه التقاليد بعض سماته، ونهاية لعالم يتسم بالتغير السريع والثورة الدائمة والانطلاق غير المحدود فى جميع المجالات معرفية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو تقنية . ولم يكن من الممكن فى ظل هذا العالم الجديد أن تعزل الجامعات نفسها عن هذه التغيرات ، فعوامل التغير قد أحاطت بها من كل الاتجاهات .

فهناك مد معرفى شمل جميع المجالات ، وهناك تغيرات اقتصادية شاملة نمت وترعرعت على مستحدثات تكنولوجية متطورة . وهناك تغيرات اجتماعية قلبت الموازين القائمة بين القوى والنظم الاجتماعية والعلاقات الانسانية ، وهناك تغيرات ثقافية شاملة شملت العقائد والمذاهب والنظم والانماط

الحياتية والمطالب الثقافية . وكان لهذا كله أثر على الجامعات من حيث مفهومها وانماط التعليم فيها ونوعية ركانتها والمستفيدين منها ، كما له أثر على أهدافها ووظيفتها وبرامجها ونظم القبول فيها . وفى ظل هذه المناخات الجديدة كان لا بد من أن تظهر

صور جديدة لا تقليدية للتعليم الجامعى لعل من أهمها ما عرف باسم " التعليم الجامعى المفتوح "

وستحاول هذه الورقة عرض بعض أصول أو جزور التعليم الجامعى المفتوح موضحة أن هذا النظام للتعليم الجامعى ليس سوى محصلة لمجموعة من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فرضت نفسها فرضا على الجامعة ونظامها التعليمى ، وما كان يمكن للجامعة سوى الاستجابة لها عن رضا فى بعض الاحيان ، او على استحياء فى أحيان أخرى .

تمهيد تاريخى :

إذا كانت النماذج الجديدة للتعليم الجامعى المفتوح قد نشأت و نمت فى أوروبا والولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية وخاصة مع بداية الخمسينات من هذا القرن ، وأنا فى مصر ومختلف دول العالم الثانى بدأنا فى اقتباس هذه النماذج فى محاولة لمسايرة هذه التطورات التى حدثت فى التعليم الجامعى مما جعلنا نبدو كالعادة مقلدين لا مبدعين ، فان اصول التعليم المفتوح فى الجامعات يمكن تلمسها بقى فى مؤسساتنا القديمة للتعليم الدينى فى الازهر أو جامعات الزيتونة والقبروان وغيرها التى امتدت على طول العالم الاسلامى وعرضه . وإذا كان لنا أن نعرف التعليم المفتوح بأنه تعليم يقوم على تنظيم جديد للعملية التعليمية " يستهدف اعطاء الحرية لكل فرد فى أن يختار نوع التعليم الذى يتفق وميوله ورغباته، ويناسب حاجاته واستعداداته، كما يعنى تنوعا فى طرق التعليم و تعددا فى وسائله ، بما يسمح بتدعيم مبادئ الديمقراطية فى عملية التعليم بحيث يتمكن كل فرد من أن يتعلم وفقا للطريقة التى تناسب قدراته وظروفه مستعينا بالوسائل التى يرى أنه يمكن أن تثرى تعليمه ، وبحيث يؤدي هذا وذاك إلى زيادة فعالية المتعلم وإيجابيته فى مواجهة الموقف التعليمى" (١) ، وإذا كان هذا التعليم يستند إلى درجة عالية من حرية المتعلم و حرية المعلم فى ظل اطار غير تقليدى للتعليم بحيث تتاح للمتعلم الفرصة الكاملة لاختيار ما يريد أن يتعلمه فى الوقت الذى يريده، وعلى يد استاذ أو أساتذة هو ينتقيهم ، فان هذا

النوع من التعليم يبدو أشد ما يكون وضوحا فى التعليم الأزهرى أو التعليم الإسلامى فى مؤسساته القديمة . فقد أنشئ الجامع الأزهر عام ٣٥٩هـ (ابريل ٩٧٠ م) ليكون مسجدا رسميا للدولة الفاطمية فى حاضرتها الجديدة القاهرة ، ويكون منبرا لدعوتها الدينية ورمزا لسيادتها الروحية ، الا أنه لم يلبث بعد مدة قصيرة أن صار مؤسسة تعليمية جامعية بحق ضمت عددا من الفقهاء والعلماء للقراءة والدرس ورتبت لهم الدولة مرتبات شهرية ثابتة وأنشأت لهم دار للسكنى بجوار الأزهر . وهكذا باشر هؤلاء العلماء مهمتهم العلمية تحت اشراف الدولة بطريقة منتظمة ومستقرة ، (٢) .

وكانت الدراسة تسيير على نظام الحلقات التقليدى المتوازن فى معظم الاقطار الإسلامية ، وقد كانت لطريقة الحلقات على بساطتها كثير من مزايا الدراسة الجامعية لأنها كانت تجمع الاساتذة والطلاب فى جو من البساطة وعدم الكلفة و تفسح المجال للمناقشة الحرة . (٣)

ظل الأزهر بالرغم من اختلاف النظم المذهبية والسياسية التى احاطت به محتفظا بالصفة التعليمية كمعهد للدراسة والقراءة ، واستمر مقصدا للعلماء المسلمين من مختلف أرجاء العالم الإسلامى ، ودرست فيه مختلف العلوم والفنون ، وكان يفتح ابوابه للطلاب من كل مذهب أو قطر . وغدا الأزهر منذ اواخر القرن السابع الهجرى كعبة الاساتذة والطلاب من سائر انحاء العالم الإسلامى . وكان الشعار التعليمى السائد فى ذلك الوقت حرية التعليم وحرية التعلم ، وحرية الاستاذ وحرية الطالب . كان التعليم فى الأزهر تعليما مفتوحا من حق المتعلم أن يأتى للدراسة فى أى وقت ، و أن يجلس لأى شيخ أو استاذ يرغبه ، و ان يدرس أى فرع من فروع المعرفة المقدمة فى ذلك الوقت . وكان الشيخ يجلس بجوار عموده والطلاب متحولون حوله يكتبون وهو يملى عليهم ، و يناقشونه فيما يراه ويرويه ، وكل ذلك فى اطار سمح متحرر . وكان من حق الدارس أن يجمع بين الدراسة والعمل ، و من حقه أن ينقطع عن الدراسة للعمل ، ثم يعود مرة أخرى للدراسة حين تتبجح الفرصة ، فلا قيود على الطالب أو الاستاذ الا القيود التى تفرضها طبيعة العلاقة بين المتعلم والمعلم . كان النظام المتبع فى عملية التعليم هو فتح الابواب لكل الراغبين الكبار حيث تلقى الدروس فى صورة

ندوات مفتوحة. (٤)

ولم يكن الامر بعيدا بهذه الصورة بالنسبة للجامعات الاوربية التي ظهرت في اوربا خلال العصور الوسطى و انتشرت في أوربا ثم الولايات المتحدة في القرنين الخامس عشر و السادس عشر . ولقد نشأت الجامعات الاوربية في حمى الكنيسة أو أمراء الاقطاع ، و كانت أشبه بتجمعات للاساتذة و الطلاب بعضها أداره الاساتذة و قلة منها ادارها الطلاب ، وتكون في مجموعات و الاساتذة ما يشبه النقابتو اطلقوا عليها اسم Universitas ومنها اشتقت كلمة الجامعة University . و كانت الجامعات منذ انشائها تتمتع بقدر كبير من الحرية و الاستقلال ، و كانت بعيدة عن سلطة رجال الدين أو رقابة الدولة أو الامراء ، على الرغم من السلطات الدينية كانت تتابع اعمالها و عادة ما كانت تمنح الامتيازات و التراخيص بالعمل . ولم تلبث الجامعات أن أصبحت وحدات لها حقوقها الخاصة ، و أصبحت لها مراكزها الاجتماعية المتميزة و جذبت أبناء بعض الطبقات المؤثرة ، كان التعليم فيها مفتوحا لكل طالب قادر على دفع تكاليف الدراسة التي كانت عادة تكاليف زهيدة (٥) .

و مع نمو حركات التصنيع في اوربا في القرنين التاسع عشر و العشرين و انهيار النظام الاقتصادي و الاجتماعي القديم و نمو الطبقة انحازت الجامعات القديمة الى الطبقات العليا و المتوسطة التي اكدت وجودها الاجتماعي ، وبدأت تركز على الطلاب المنتظمين و تدربهم على فنون القيادة الفكرية و الادارية ، و اقامت بذلك حوار بينها و بين مجتمعاتها ، فانفصلت الجامعة عن المجتمع بواقعه و مشكلاته . الا أن القوى الاجتماعية التي أفرزتها حركة التصنيع في اوربا ثم في الولايات المتحدة و كذلك التطورات العلمية و التقنية التي نمت نمو كبيراً خلال القرنين التاسع عشر و العشرين كانت لها آثارها الواضحة على مسيرة حركة التعليم الجامعي خلال هذه الحقبة فأثرت على طبيعة الجامعة و اهدافها و برامجها و نظم القبول فيها . و لعل أهم هذه الآثار ما يلي :

١ - الاهتمام بالتعليم العلمى :

كانت الجامعة القديمة منذ نشأتها الاولى و حتى بدايات القرن التاسع عشر تهتم بالعلوم أو الفنون المدرسية ، كانت الدراسة تشمل النحو و الفلسفة و المنطق و الرياضيات و الفلسفة الاخلاقية . و من الناحية المهنية كانت تهتم باعداد الافراد المهن العالية فى ذلك الوقت . من الطب و القانون و اللاهوت . و عندما بزغت الحركة العلمية و ترعرعت عاداتها الجامعات القديمة مما ادى بالمعرفة العلمية الى ان تنمو خارج الجامعات فى صورة جمعيات و مؤسسات علمية مختلطة (٦) . الا أنه مع بداية القرن التاسع عشر و بصورة اوضح خلال القرن العشرين بدأ العلم يغزو الجامعات القديمة و صار اساسا للجامعات الحديثة التى انشئت فى أوروبا و امريكا خلال هذين القرنين . و كان الغزو العلمى بمثابة تحول من الاهتمام بالطوم الشكلية و المدرسية و اللاهوت الى الاهتمام بالبحث عن المعرفة العلمية من خلال الملاحظة المنهجية للظواهر الطبيعية . و لم يكن هذا الاهتمام قاصرا فقط على تعليم العلوم الطبيعية و ادخالها مناهج الدراسة ، و انما ادى الى خلق مناخ ذهنى جديد لم تعرفه الجامعة كمن قبل ، مناخ اتسم باحترام قيم الموضوعية و الحيادية و التواضع و الشك العلمى و البحث ، و كلها صارت بمثابة العناصر الاساسية للعمل الجامعى .

٢ - الاهتمام بالبحث :

كان لنمو الحركة العلمية و تبنى الجامعات خلال القرنين التاسع عشر و العشرين للعلم و التعليم العلمى كعنصر اساسى من عناصر التعليم الجامعى و أثره فى تطور وظيفة الجامعة . فبعد ان كانت الجامعة مهتمة بالتعليم بهدف حفظ و تواصل المعرفة ، أو اعداد قيادات فكرية أو ادارية أو مهنية معينة ، صار البحث العلمى و وظيفة اساسية للجامعة بل أن بعض الجامعات جعلتها وظيفتها الاساسية . و قد تمثل ذلك بوجه خاص فى انشاء جامعة برلين عام ١٨٠٩ التى ارتبط اسمها باسم مؤسس فكرتها وليم

فون هميلت . كان رؤية فون هميلت لجامعة برلين رؤية خاصة و جديدة تماما . فهي في نظرة مؤسسة تربوية وهبت نفسها للبحث و التعليم العلميين في اوسع معانيهما . فمهمة الجامعة ليست تقديم معارف معينة ، و لا اعداد الشباب لممارسة العمل في الحكومة أو المهن العالية المختلفة ، و لكن مهمتها الاولى تربيهم في مناخ من الحرية الفكرية ليبحثوا و ليطوروا المعرفة الإنسانية عن طريق قوى الاستقلالية في التفكير و عادات البحث . فالهدف من الجامعة ليست معرفة موسوعية و لكن ثقافة علمية حقيقية (٧).

و نجت جامعة برلين نموذجا للجامعات الحديثة في العالم كله و خاصة بالنسبة للجامعات في الولايات المتحدة . و صار البحث العلمى هدفا كاد يكون مقدسا لها . و صارت حرية التعليم و التعلم

(Lehr - freiheit and - Lern -Freiheit) و كذلك حرية البحث

الإكاديمى مبادئ أساسية فى التعليم الجامعى . و كان لذلك أثره على تنظيم التعليم الجامعى فظهر نظام المقررات الدراسية الذى يقوم على اساس مبدأ اختيار الطالب للمقررات التى يريد تعلمها ، و السماح للطالب أن يسقط بعض المقررات و يأخذ غيرها مما كان له أثره فى المرونة الكبيرة للتعلم الجامعى الأمريكى بوجه خاص

٢ - قبول التعليم التكنولوجى :

نما التعليم التقنى بجميع مستوياته خارج الجامعة . ذلك ان الجامعة كانت تعتبر نفسها تقليديا مكانا للدراسات الحرة ، مكانا لتعليم المهن العالية التقليدية كمن الطب و المحاماة و الكهنوت ، فكانا تنمو فيه العلوم البحتة البعيدة عن مجال التطبيق و التصنيع . و كان لرفض الجامعة قبول التعليم التطبيقى أو التكنولوجى مع نمو الصلابة الى مهندسين و تقنيين عاليين و اداريين و محاسبين ، و غيرهم تحت ضغط قوى التطور التقنى و الصناعى أن نشأت مؤسسات تعليمية عالية خارج الجامعة للاعداد لهذه النوعية من القوى العاملة . الا ان الضغط الجارف من قوى الصناعة و التصنيع اضافة الى التغير الاجتماعى و زيادة اعتماد محتوى هذه المهن على المعرفة العلمية جعل

الجامعات مضطرة لافساح المجال لهذه المهن التطبيقية و التكنولوجيا ، فافترت لها اقسام أو كليات تخصصية ، بل ان كثير من هذه المؤسسات التعليمية و التكنولوجيا صارت نواة لجامعات جديدة عرفت فى انجلترا باسم الجامعات الاقليمية Civic Universities أو جامعات الأحمر Redbrick Universities لان مبانيها كانت عادة من الأحمر و تميزا لها عن جامعتى اكسفورد و كمبريدج المبنيين بالحجر الجيرى . وكان لدخول الدراسات التقنية العالية أو الدراسات التكنولوجيا أثره فى نوعية الطلاب المقبولين فى الجامعة فصار معظمهم مرتبطبن بنوعية جديدة من التعليم و الثقافة التقنية ، كما انهم كانوا يستهدفون عملا يرتبط بالحاجات الجديدة فى المجتمع .. مما ادى الى نشوء فكرة وجود وظيفة نالفة للجامعة و هى خدمة البيئة و المساهمة فى تطويرها .

٤ - تقديس التميز الاكاديمى :

صحب التغير فى المكان الفكرى للجامعات و نوعية مناهجها و تنوع اهتماماتها أو وظائفها تغير فى نوعية مستوى الطلاب الذين تسمح لهم بالقبول فيها . كانت الجامعات القديمة التقليدية كاكسفورد و كمبريدج فى انجلترا أو الجامعات العريقة فى الولايات المتحدة تستقى طلابها عادة من فئات اجتماعية و اقتصادية متميزة . الا ان الحركة العلمية و التوجهات الاقتصادية و الصناعية و ارتقاء بعض المهن كمهن الطب و الهندسة و المحاسبة و غيرها ، و حاجات المجتمعات الى ان تتولى الجامعات الاعداد لهذه المهن ، اضافة الى حركة التوسع التعليمى الشامل التى دعت الى جعل التطيم الاساسى الزاميا و الى التوسع فى التعليم الثانوى و جعله عاما للجميع و غير ذلك من صور النمو الديمقراطى و الحراك الاجتماعى ، كل هذا و غيره ادى الى نشأة ضغوط جديدة على القبول بالجامعة لم تشهدها من قبل . فمن ناحية صارت الجامعات بوابة الدخول الى المهن العالية الحديثة ، و من جهة ثانية صارت الشهادة الجامعية بمثابة الورقة التى تؤهل الافراد للحصول على مكانة اجتماعية متميزة . و نتيجة لهذا الضغط بدأت الجامعات تضع قيودا على نظم القبول فيها بحيث لا يدخلها سوى المتمازين عقليا

وأكاديميا . وكانت أدائها في ذلك الوقت سلسلة من نظم الامتحانات تعقد في نهاية المرحلة الثانوية أو عند التقدم للقبول . وترتب على ذلك أن صار المجتمع الجامعي مجتمعا يقوم على الجدارة الذهنية أو الأكاديمية Meritocratic Society بعد أن كان مجتمعا يقوم على الجدارة الاجتماعية والاقتصادية . وبدا للجامعات أن هذه القيود التي تضعها على القبول هو السبيل الكبير للمحافظة على تماسك الجامعة وتميزها .

من هذا العرض التاريخي تتضح بعض الملامح الأساسية للجامعة والتي تبلورت في عدد من المبادئ والتقاليد لعل أهمها :

- ١ - أن التعليم الجامعي لا يمكن أن يتم إلا داخل الجامعة وفي حرمتها .
- ٢ - أن الجامعات مؤسسات علمية وتعليمية تقوم على التميز سواء أكان تميزا اجتماعيا أو أكاديميا ذهنيا .
- ٣ - أن الدخول للجامعة يجب أن يتم عبر مجموعة من الاختبارات والامتحانات العامة أو التي تجريها الجامعة ، ولا سبيل لغير من يجتازها أن ينال شرف القبول فيها .
- ٤ - أن الجامعات مؤسسات لها مناخها الذهني الخاص باعتبارها مجتمعا مقفلا أهله من الأساتذة والطلاب .
- ٥ - أن المهمة الأولى للجامعة هي حفظ المعرفة وتواصلها وتنميتها وأن سبيلها لذلك هو التعليم النظامي والبحث العلمي .
- ٦ - أن الجامعات تعد طلابها أساسا للعمل في المهن الحرة والمهن العالية وليس من وظيفتها أن تعد لما دون ذلك من المستويات المهنية والوظيفية .
- ٧ - أن الجامعة يجب أن تتمتع باستقلال أكاديمي وحرية ذاتية كاملة في توجيه التعليم والبحث فيها .

قوى التغيير التي أدت الى نشأة و تطور التعليم الجامعى المفتوح

سبق أن أوضحنا ان التعليم الجامعى المفتوح كان له تراثه فى التعليم الدينى فى الازهر و أمثاله من مؤسسات التعليم فى العالم الاسلامى ، كما كان له بعض تراثه فى نشأة الجامعات الحديثة فى العالم الغربى . الا ان الجامعات ما لبثت أن صارت مجتمعات منعزلة عن الاطار الاقتصادى والاجتماعى الذى يحيط بها ، وأضحت مكانا لتعليم أبناء الصفوة الاجتماعية تقدم لهم ما يحتاجون من علوم ومعارف انسانية . و مع التقدم العلمى والتقنى خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين فتحت الجامعات أبوابها لزيائن جدد ، كما سمحت لنفسها أن تقبل مجالات جديدة من المعارف العلمية والتقنية بحيث صارت مؤسسات تربوية للصفوة الاجتماعية والذهنية فى نفس الوقت ، و صارت مهمتها اضافة لحفظ المعرفة وتواصلها وتمييتها اعداد نخب مهنية للعمل فى قطاعات النشاط الاقتصادى والاجتماعى المختلفة . الا ان الجامعة - بالرغم من التغييرات التى أصابتها - جمهورا ومجالات معرفية - ظلت مهتمة بما يتم داخلها وعزلت نفسها داخل اطارها أو حرمها و اطلت على العالم المحيط بها و هى قابعة فى عزلتها دون أن تحاول أن تمد نشاطها الى خارجها :

و ظل الامر كذلك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية التى احدثت هزات اجتماعية وثقافية واقتصادية خطيرة أجبرت الجامعة على الخروج من عزلتها ومد خدماتها الى مختلف الفئات الاجتماعية و الى مختلف الاعمار والخلفيات التعليمية وغير ذلك من مفهوم الجامعة ، كما تميز من سياستها وبرامجها ، ونشأت انواع وصيغ جديدة للتعليم الجامعى لعل اهمها التعليم الجامعى المفتوح . و سنحاول فيما يلى عرض بعض القوى التغيير التى هى بمثابة الينابيع أو المصادر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للتعليم الجامعى المفتوح .

١ - الاستجابة للمد الجماهيري :

لم تكن استجابة الجامعة لمطالب الجماهير للحصول على فرصة للتعليم وليدة التغييرات التي أحدثتها الحرب العالمية الثانية ، وانما كانت هناك حركة ممتدة لقرون طويلة منذ انهيار النظام الإقطاعي تدعو الى تمكين المواطنين من الحصول على حق التعليم تحت ما يسمى بالحقوقي الوطنية لجميع افراد المجتمع . وقد اخذت هذه الحركة دفعة كبيرة من الثورة الفرنسية التي جعلت شعارها حرية و أخاء و مساواة و تآثيراتها على اوروبا و الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر . و قد استجابت نظم التعليم جميعا لدرجات مختلفة لهذه الحركة الا أن تأثيراتها لم تمس الجامعات كثيرا (٨) التي تحصنت بفكرتها التقليدية عن مفهوم الجامعة وطبيعة مجتمعاتها و العلاقات الحيمة بين الاساتذة و الطلاب .

الا أن هذه الحركة تفجرت بقوة بعد الحرب العالمية الثانية على اعتبار أن الجماهير هي التي قاست ويلات الحرب ، و هي التي انتصرت فيها و من ثم يجب أن تجد مكانا لها في الجامعة التي ظلت لسنوات و عقود طويلة حكرا لطبقات هي التي صنعت الحروب ، و لعلها لم تذق و يلاتها تماما . و تفجرت هذه الحركة للحد الذي نشأت معه دعوة قوية بأن جميع الفروق الطبقية و الاجتماعية التي نشأت بحكم الميلاد يجب أن تقضى عليها ، هذه الفروق التي تبدت في فرص القبول في الجامعة و التي جعلتها مكانا للصفوة الاجتماعية أو الصفوة الاكاديمية . فهاجمت هذه الدعوة للمساواة الجامعة القائمة هجوما شديدا و دعت الى تفتح ابوابها للجميع بصرف النظر عن انتماءاتهم الاجتماعية و الاقتصادية أو قدراتهم الذهنية و الفكرية و لم تقف هذه الدعوة فقط عند حد فتح ابواب الجامعة للجميع (٩) . و انما تضمنت الدعوة عناصر معادية للذهنية ، Anti - intellectualism احتقرت التقاليد المعرفية الصارمة Cognitive Tradition و دعت الى تضمين الجامعة برامج تعليمية متنوعة من مختلف المشارب و الاتجاهات ، برامج مهنية في معظمها لم تتسم بعمق أو دقة المعرفة و انما تستهدف اعداد الخريجين اعدادا مبهذا يمكنهم من العمل في مجالات العمل

المختلفة^(١٠) كما قادت هذه الحركة الداعية للمساواة الى استرخاء فى مستويات القبول و خفض لمستويات التعليم أو التنوع فى مستوياته بحيث تتلاقى مع قدرات الطلاب و امكاناتهم و فرصهم للانتظام و الحضور .

و قد ظهر هذا الاتجاه بوضوح فى تقرير روبنز عن التعليم العالى فى انجلترا و الذى على اساسه تبنت انجلترا سياسة للتعليم الجامعى تقوم على اتاحة فرصة لكل من يقدر عليه و يرغب فيه ، و ترتب على ذلك موجة كبيرة من انشاء الجامعات فى انجلترا فى الستينات و السبعينات . كما ظهر هذا الاتجاه ايضا فى البيان الذى قدمته وزارة التربية فى انجلترا بشأن برنامجها للتعليم العالى للبرلمان عام ١٩٧٢ و الذى أوضحت فيه ان سياستها هى تمكين جميع افراد المجتمع من الوصول الى تعليم جامعى رغم اختلاف قدراتهم و طموحاتهم ، و عليه قبلت جميع الجامعات الانجليزية فكرة القبول المفتوح † Open Admission و ظهرت الجامعات المفتوحة فى انجلترا و الولايات المتحدة و الكليات المسائية فى كندا^(١١) . و ترتب على ذلك تغيير فى نظم القبول و الاعتراف بمعادلة الخبرات الشخصية و خاصة خبرات العمل ببعض المقررات أو الساعات المعتمدة . كما اعتمدت كثير من الجامعات فكرة عدم الحضور و الدراسة عن طريق المراسلة و التعليم المتناوب الذى بموجبه يمكن للطلاب ان يحضر فصلا دراسيا فى الجامعة و يقضى مدة فى العمل فى المصنع أو المتجر ، و يستمر هذا التناوب فى الدراسة و العمل حتى يستكمل الطالب متطلبات التخرج و الحصول على الشهادة .

و لا شك أن أتاح هذا فرصا كثيرة للتعليم الجامعى لم تكن متاحة من قبل ، الا انها أدت الى نوع من التمييز و الاسترخاء فى الحياة الاكاديمية قادت فى النهاية الى فكرة خطيرة و هى أن المساواة ليست فقط مساواة فى فرص القبول و لكن مساواة ايضا فى النتائج ، بمعنى أنه اذا كان للجميع الحق فى القبول فلجميع ايضا بنفس القدر الحق فى النجاح و التخرج^(١٢) . و هناك شواهد كثيرة فى التعليم الجامعى الآن - يمكن أن نلاحظه فى الجامعات المصرية - تعبر عن النظرة الفاضحة لارتفاع نسب الرسوب و وضع الكفاءة الداخلية الكمية ، أدت بطريقة أو اخرى للاحجام عن

ترسيب الطلاب .

٢ - تغير التركيبة الاجتماعية للجامعة :

كانت التركيبة الاجتماعية حتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين على درجة عالية من الثبات . كان الاساتذة عادة ما يأتون من بيئات اجتماعية وثقافية عالية ، وكذلك كان الحال لمعظم الطلاب ، وكان هذا سببا في احداث نوع من الاستقرار الاجتماعي و الاكاديمي في الجامعة جعلها جزيرة هادئة شغلها الشاغل هو المعرفة والبحث والتقصى .

الا أنه تحت الضغوط العالية للطلب الاجتماعي على التعليم الجامعى فى جميع الدول تقريبا مع بشائر النصف الثانى من القرن العشرين تغيرت التركيبة الاجتماعية للطلاب و الاساتذة فصار الطلاب يأتون فى معظمهم من بيئات متوسطة ان لم تكن متدنية ، و خرج الاساتذة و أعضاء الهيئة التدريسية من بين هؤلاء الطلاب يحملون كثيرا من قيم هؤلاء الطلاب و مستوياتهم الاجتماعية و الثقافية . و كان لهذا أثره على نشأ و نمو التعليم المفتوح . فمن ناحية كان دور الطالب فى الجامعة هو نور الراهب الذى فرغ نفسه تماما لتحصيل العلم ، أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد ظهرت نوعية جديدة من الطلاب تحتاج للعمل حاجتها للدراسة و هى من ثم مضطرة لتوزيع وقتها و جهودها بين الدراسة و العمل . و من منطلق الاستجابة للجماهيرية و مبادئ الديمقراطية و المساواة نمت فكرة اشراك الطلاب فى ادارة الجامعة ، و فى تقرير مستويات النجاح و أساليب التقويم لهم و لأعضاء الهيئة التدريسية . و صار من حق الطلاب أن يعبوا آراءهم فى تحديد ماذا يدرسون و متى يدرسون و أين و كيف يعيشون . و بدلا من أنه كان مطلوبا من الطالب أن يعيش دائما داخل الحرم الجامعى و فى مساكن تابعة للجامعة و ضمن حرمها صار من حقهم ان يعيشوا خارج الحرم ، و أن يمدوا جسورا للحصول على المعرفة و مواصلة الدراسة حيث يعيشون . و من ثم صار التعليم المفتوح يحقق غرضا فرضته عليهم ظروف المعيشة و العمل .

أما بالنسبة للاساتذة و أعضاء الهيئة التدريسية فقد كانت الجامعة بفصولها أو لدرجاتها و مختبراتها و دهاليزها و مكتباتها بمثابة ماء الحياة لهم . أما الان و مع

بداية النصف الثاني من القرن العشرين ، فلم تعد الجامعة بالنسبة لهم فى نفس الجامعة بالنسبة لأسلافهم . فالجامعة بالنسبة لهم ليست سوى مصدر للتمويل أو المركز الاجتماعى أو الاكاديمى . و صار وجودهم فى الجامعة مصدرا زعاج أو عبء عليهم تفاديه قدر الامكان . لذلك لم يعد غريبا أن يدعوا الاساتذة وأعضاء الهيئة التدريسية الى تبني فكرة التعليم المفتوح ويسعدوا بها . فهو تعليم لن يكلفهم وقتا كبيرا للحضور والبقاء بالجامعة ، كما لن يكلفهم أساليب التدريس التقليدية ومتطلباتها من حضور وتفاعل مع الطلاب . وفى ظل التعليم المفتوح سيكون الجهد اساسا جهد الطالب ، وما على هذا الاستاذ سوى توفير المرجع وتوجيه الطالب واعداد المادة العلمية و اجراء التقويم النهائى .

٢ - تاكل النظام المعيارى للجامعة :

خلال قرون طويلة حافظت الجامعات على ما يمكن تسميته بنظام معيارى -
 native order خاص بها . وبالرغم من أن هذا النظام المعيارى قد اصابه كثر من التغيير يمرور الزمن وتغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية ، الا أنه كان هناك دائما اتفاق عريض و عام بين رجال الجامعات على القضايا والمبادئ الاساسية الخاصة بالجامعة مثل وظيفة الجامعة ومهمتها الاجتماعية ، وطبيعة التعليم الجامعى ، وقيمة الحياة العقلية ومكان المعرفة فى المجتمع والحياة الانسانية والحاجة الدائمة للولاء للجامعة . واستقلالية الجامعة الاكاديمية والادارية ومسئولية استاذ الجامعة نحو تلاميذه ونحو تحقيق أقصى درجة ممكنة من الموضوعية فى البحث والتدريس .
 ولقد كانت هناك دائما حوارات ومناقشات حامية فى معظم الدول العريقة فى التعليم الجامعى وفى غيرها ايضا حول مصير التعليم الجامعى وحول مستقبله وحول مجموعة المبادئ والاسس التى تحكمه وذلك خلال انفترة فيما بين الحربين العالميتين ، و اثرت تساؤلات كثيرة حول مجموعة من القضايا مثل : هل تقوم الجامعة بدورها الذى يجب ان تقوم به و الذى تؤهله لها مكانتها وامكاناتها فى المجتمع ، و هل تقوم البرامج المناسبة لحاجات طلابها ومتطلبات مجتمعاتها ؟ ، الا أن هذه المناقشات

التساؤلات لم تحاول ابداً في التقاليد الاصلية للجامعة مثل حرمتها في تقديم برامجها أو انسانية المعرفة أو تقديس عملية التدريس ، أو امتحان عملية البحث ، او انتقائية أو اصطفائية طلابها و برامجها أو دفاعها عن حرمتها و حرمتها .

الا أن هذه التقاليد أو هذا النظام المعيارى ما لبث أن أصابه الكثير من التآكل أو التضعض تحت تأثير المد الجماهيرى و الفلسفات الشعبية و الاهتمام الشديد بربط التعليم الجامعى بحاجات المجتمع و مطالبته الأنية و المباشرة و تحت ثورات الطلاب و رغبتهم الشديدة فى توجيه نوعية التعليم نحو ما يريدون الحصول عليها و مطالبتهم بكثير من الحقوق المشروعة و غير المشروعة فى المساهمة فى ادارة الجامعة و تنظيم عمليات القبول و الامتحانات ، و تحت تأثير عوامل أخرى لعل أهمها رغبة الدولة فى التدخل فى أمور الجامعات لاعتبارات سياسية أو تحت دعاوى ترشيد التمويل و خفض كلفته .

و فى ظل هذا المناخ و تلك المؤثرات لم تعد للجامعة تلك الهالة الكبيرة التى عرفتها الجامعات قبل الحرب العالمية الثانية أو حتى مشارف النصف الثانى من القرن العشرين ، فتمت بجوار الجامعات مؤسسات للتعليم العالى و خاصة مؤسسات التعليم المهنى و التكنولوجى ، و أعطت حكومات بعض الدول كثيراً من الامتيازات و الامكانات لهذه المؤسسات للتعليم العالى . و فى المعامل ، و تحت شعار الاستجابة لمطالب التغير الاقتصادى و الاجتماعى فرضت الحكومات على الجامعات أن تخفف من مبادئها و مكونات نظامها التى التزمت بها دائماً ، و من هذه القواعد و المبادئ الالتزام بفكرة المجتمع الاكاديمى ، و السعى الخالص للمعرفة و فكرة حرم الجامعة و استقلاليتها و التفاعل المباشر بين الاساتذة و الطلاب . و كان من نتيجة ذلك أن تميعت فكرة الجامعة التقليدية و تدنت مكانتها التى حافظت عليها بكل جهدها سابقا . و صار من الطبيعى أن تقبل الجامعة افكاراً جديدة و صوراً مستحدثة للتعليم الجامعى على رأسها فكرة الجامعة المفتوحة و التعليم عن بعد .

بالإضافة الى هذه المؤثرات والقوى السابقة ، وهى اجتماعية فى مسحتها ، نشأت قوى اقتصادية أثرت تأثيرا كبيرا على المفهوم التقليدى للجامعة ، لعل أهمها تلك الدعوة الكاسحة للتنمية . ظهرت التنمية كصيحة اجتماعية أساسية فى جميع الدول المتقدمة منها والنامية ، وصارت هدفا وسبيلا لتحقيق الرفة الاجتماعى والانسانى . ومع الاهتمام بالتنمية ظهر الاهتمام بالعامل البشرى كعنصر اساسى لاحداث التنمية ان لم يكن هو العنصر الاساسى . و اذا كان الامر كذلك ، وانطلاقا من المسئولية الاجتماعية للجامعة باعتبارها مسئولة مسئولية مباشرة عن اعداد وتدريب المستويات العالية من القوى البشرية كان على الجامعة ان تضع وتوجه جميع امكاناتها لتحقيق هذا الغرض . و اذا كان هناك صعوبات تحول بون قيام الجامعات بهذه المسئولية لصعوبات تنظيمية أو لأعتبارات معيارية سابقة فعلى الجامعات أن تتعدها بحيث يمكن للشباب الذى يريد أن يحصل على هذا الاعداد والتدريب أن يصل اليه . و معنى ذلك أن الجامعة مطالبة بان تعيد النظر فى نظام القبول فيها بحيث لا تقصره على خريجى نوعية معينة من التعليم الثانوى (الحصول على الثانوية العامة) وانما عليها ان تفتح باب القبول فيها لمن يحمل مؤهلات أخرى غير الثانوية العامة ، أو لمن لا يحمل شهادات ثانوية على الاطلاق مكفية برغبة الطالب للتعلم ، اما قدرته فسوف تكشف عنها مدى نجاحه فى الاستفادة من البرامج الجامعية التى يحضرها . فعلى سبيل المثال هناك من تسرب من التعليم العام ، وهناك من بدأ حياته العملية ويرغب فى اتمام تعليمه الجامعى فى مراحل متأخرة ، وهناك فئة الفنانين والعمال المهرة من العاملين فى المصانع والمزارع وغيرها فى مواقع الانتاج ، وهؤلاء يرغبون فى الاستزادة من معلوماتهم وتخصصاتهم بغية تحسين وضعهم الاجتماعى والمادى (١٣) . و اذا كان الامر كذلك فعلى الجامعة ايضا أن تغير من اساليب التعليم بحيث لا تكفى بأساليب التعليم التقليدية من محاضرة ومناقشة و اشراف مباشر على الطلاب ، وانما عليها أن تعتمد اعتمادا كبيرا على اساليب التعليم عن بعد عن طريق استخدام الاذاعة والتلفزيون والتعيينات والحزم التعليمية وغيرها . و كل هذا حتى تستطيع الجامعة

الوفاء بالاحتياجات المتنامية من قوى عاملة عالية فى التخصصات المختلفة و التى يفرضها السعى نحو التنمية .

٥ - التغير فى الهياكل الاقتصادية و الوظيفية :

كان لتطور حركات التصنيع و أساليب الانتاج فى النصف الثانى من القرن العشرين أثر هائل فى تغير الهياكل الاقتصادية و الوظيفية فى الدول المتقدمة و النامية على حد سواء و الملاحظ لتطور نسب توزيع القوى العاملة فى القطاعات الاقتصادية المختلفة خلال العقود الاخيرة يمكن ان يلاحظ أن هناك تحول مستمر و سريع من القطاعات الاقتصادية التقليدية و التحويلية الى قطاعات الخدمات . و قد أدى هذا التحول فى البنى الاقتصادية الى تحولات أخرى سريعة فى البنى الوظيفية أو المهنية بحيث ازدادت الحاجة الى عمالة ذات مستويات وظيفية عالية تصحبها بالضرورة مستويات تعليمية عالية . و كان من الطبيعى نتيجة لذلك أن تنمو معدلات الطلب على التعليم الجامعى ، و أن تستجيب الجامعة لذلك لسد احتياجات المجتمعات لهذه الفئات من العمالة الماهرة (١٤) . و لما كان من الصعب أن تفتح الجامعات فى أغلب الدول ابوابها لهذا السيل المتدفق من الشباب الراغب فى هذه المستويات التعليمية ، نشأت الحاجة الى تبنى نظم مفتوحة للتعليم الجامعى و أساليب غير تقليدية له تسمح لهؤلاء أن يحصلوا عن تعليم جامعى غير نظامى ، تعليم يرتبط بحركة المجتمع الاقتصادية و مطالبه المتغيرة ، و يتمتع بقدر كبير من المرونة و القدرة على المواءمة بحيث يساعد الافراد على تكييف أنفسهم مع مطالب العالم المتغير و يساعدهم على المشاركة مشاركة ايجابية قادرة فى عملية التنمية . (١٥)

٦ - الحاجة الى ترشيد الانفاق على التعليم الجامعى و خفض كلفته :

من المعلوم أن التعليم الجامعى تعليم مكلف ، و هو تعليم يجب أن يكون مكلفا اذا اردنا أن يكون تعليما جيدا . ذلك أنه يعتمد بصورة شديدة على استثمارات عالية فى

المعدات و الاجهزة و المختبرات و مراكز البحث العلمى و التقنى ، اضافة الى اعتماده على معدلات من أعضاء الهيئة التدريسية للطلاب ، و حاجته الى كثير من الخدمات الاجتماعية الطلابية فى صورة اسكان و نشاط طلابى . و هى جميعا تتطلب انفاقا عالية لا تطبقه كثير من المجتمعات النامية و المتقدمة ، كما لا يطبقه الافراد الذين يتكفون بنفقة أبنائهم فى الجامعات .

و قد تسبب ذلك فى ظهور مشكلة أمام المسئولين عن التعليم الجامعى من سياسيين و جامعيين . ذلك أن توسيع فرص القبول فى الجامعات النظامية يتطلب امكانات مالية و بشرية قد لا تطبقها الدولة و لا تستطيع توفيرها . فاذا سلكت الدولة سبيل التوسع فى القبول حقيقيا لمبدأ تكافؤ الفرص و الانتقال من التركيز على تعليم الصفوة الى فتح أبوابها للجميع ، فإن الموارد المتاحة للجامعات فى ظل تنظيمها التقليدية لن تفى بتقديم تعليم جيد ، و سنخفض بالضرورة مستوى التعليم الجامعى المقدم و هو أمر تشهده نول كبيرة و منها مصر . و اذا ضيق القبول فى الجامعات بحيث لا تقبل سوى اعداد قليلة من خريجي الثانويات بدأ الضغط على واضعى سياسة القبول من سياسيين و جامعيين لفتح باب القبول . و لعل هذا يفسر التذبذب الذى تراه فى دول كثيرة و منها مصر فيما يختص بسياسات القبول . فحيث يتم الاعلان عن تحديد نسب القبول فى الكليات الجامعية عند حد معين سرعان ما يتم التخلى عن السياسة المعلنة و يزداد عدد المقبولين أو نسبهم أو تنشأ لهم مؤسسات لا هم لها فى الحقيقة سوى استيعاب الخريجين فى الثانويات . و فى ظل هذا المناخ بدأ الحل فى استحداث صيغ جديدة للتعليم الجامعى تعتمد على التعليم غير النظامى أو التعليم المفتوح بحيث تستطيع الدولة مواجهة الطلب المتزايد على التعليم الجامعى بون أن تسهم كثيرا فى تكاليف اقامته ، أو بحيث يتولى الافراد تحمل كلف هذا التعليم الذى يمكن لهم تحملها و دن ارهاق شديد .

٧ - تطور وسائل الاتصال و الاعلام :

ان التطور الهائل فى وسائل الاتصال و الاعلام نتيجة ما يمكن تسميته بالثورة

التكنولوجية التي نمت مع بداية الخمسينات و الستينات من هذا القرن كان لها اثارها الواضحة فى نشأة و تطور التعليم الجامعى المفتوح . ففى ظل الجامعة التقليدية كان التعليم يتم من خلال الاتصال المباشر بين افراد المجتمع الجامعى من أساتذة و طلاب و كانت هذه الرابطة الانسانية هى العامل الحاسم فى تشكيل مفهوم الجامعة و تكوين المجتمع الاكاديمى و الاعتزاز بالقيم الاساسية للجامعة . الا أن التطور الهائل فى وسائل الاتصال و الاعلام ، و قدرة هذه الوسائل على توصيل و عرض المعلومات جعلت الجامعات مطالبة بالانعزال عن هذا التطور التقنى ، بل صارت مطالبة بأن تستفيد فيه أقصى استفادة ممكنة بما يمكنها ما لديها من معرفة و خبرة على أعلى مستوى لأكبر عدد من الناس الذين يرغبون و يقدرون على الاستفادة منها بغض النظر عن اعمارهم أو خلفياتهم الثقافية و الاجتماعية ، و لا شك أن هذا دعا الى ظهور صور و بدائل جديدة للتعليم الجامعى كالتعليم المفتوح تكون اكثر قدرة على الاستفادة من معطيات التقدم فى وسائل الاتصال و الاعلام .

.....

و أخيرا فلعل ما سبق قوله هو بعض جذور أو اصول التعليم الجامعى المفتوح ، و عند هذا الحد يظهر تساؤل هام و هو لى مدى سيكون المستقبل لهذا النوع من التعليم ؟

لا شك أن الاسباب التى دعت لتبنى هذا النموذج للتعليم الجامعى سوف تظل قائمة لسنوات أو عقود قادمة ، و لعل هذا النموذج سوف ينمو و يتأكد . الا أنه فى اعتقادى - لن تكون له سياسة على أرض التعليم الجامعى . فالجامعة التقليدية باعتبارها مؤسسة تضم مجموعة منتقاة من الاساتذة و الطلاب فى تفاعل مباشر و مستمر سوف تظل الصبغة القائدة و الموجهة فى هذا المجال . و من الخطورة دفع هذا النوع من التعليم المفتوح لمدى أكثر بحيث يحل محل الجامعة بصورتها التقليدية . و قد تصور البعض فى الخمسينات و الستينات من هذا القرن أن الآلات التعليمية التقنية يمكن أن تحل محل المدرسة ، و اعتقد البعض أن مدرسة المستقبل ستكون أشبه بالورشة الصناعية الكبيرة التى يعمل كل طفل فيها على آلة تعليمية تحت إشراف معلم مشرف . و لم تصدق هذه الرؤية و لن تصدق . فالتعليم فى النهاية -

جميعها كان أو مدرسيا - سيظل علاقة مباشرة من طالب ومعلم ، ومن هذه العلاقة المباشرة ينبت الإبداع وتستقر القيم وتتكاد انسانية الانسان وتتمو قيم الحرية و الديمقراطية ، و تتحقق ذاتية الطالب و المعلم . و تقدير كل منها للآخر ، و يحدث الولاء للعلم و مؤسساته .

(١) سعيد أحمد سليمان ، الجامعة المفتوحة كصيغة مقترحة لتعليم الكبار في مصر - دراسة تحليلية ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية التربية جامعة الاسكندرية ١٩٨٣ .

(٢) أنظر محمد عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ، توسعاً التاريخي ١٩٥٨ د محمد عبد المنعم خفاجة ، الأزهر في ألف عام القاهرة ، المطبعة المنيرية بالأزهر ١٩٥٤

(٣) عبد الحميد عبد الله سلام ، العلاقات الثقافية لجامعة الأزهر بعد تنظيمها عام ١٩٦٠ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة الأزهر ١٩٧٥ ص ٢٨

(٤) المجلس الأعلى للجامعات ، دليل الجامعات في جمهورية مصر العربية ، القاهرة ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية و المدرسية و الوسائل التعليمية ، ١٩٧٩ ص ٧٠

(٥) أنظر سعد مرسي أحمد ، تطور الفكر التربوي ، عن القاهرة ، عالم الكتب ١٩٨١ ص ص ٣٥٣ - ٣٥٧

و محمد منير مرسي ، تاريخ التربية في الشرق و الغرب ، القاهرة ،

عالم الكتب ١٩٧٧ ص ص ١٤٦ - ١٥٧ .

(6) M . S . fahmy , Industrial and Technological Development and patterns of Education in Some Selected Western Countries Unpublshed PH . D . Thesis , Reading Univ . England 1962 , PP . 53 - 59 .

(٧) المرجع السابق ص ٢٧٠ نقلا عن

(8) Palsen F, The German Universities and Univiersi ty Stusy, Longmans, Green& Co. Lodon1906.PP.53-59

(٨) أقامت جامعة لندن التي أنشئت عام ١٨٢٧ نظما للامتحانات سمح للأفراد الكبار في مختلف أرجاء العالم يتيح لهم فرص التعليم الجامعي عن بعد والحصول علي الدرجات العلمية التي تمنحها .

(٩) فتحت كثير من الجامعات الاوربية والامريكية أبوابها للمسرحين من الجنود بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية بون اشتراطات أكاديمية مكافأة لهم عن معاناتهم أيام الحرب .

(١٠) ليس غريبا في ظل هذا المناخ أن تصبح السياحة والفندقة والاقتصاد المنزلي والتجارة والتجارة الخارجية اعداد المعلم والتربية والرياضة تخصصات جامعية

(11) Murray G .Ross , The University - The Anatomy of Academe Mc Graw - Hill Book Co . 1979 , P . 258

(١٢) المرجع السابق ص ٢٦٤ .

(١٣) أحمد أنيس ، الجامعة المفتوحة ، دورية المجالس القومية المتخصصة ، العدد الثاني السنة الثالثة - ابريل - يونية ١٩٧٨ ص ١٩ .

(١٤) محمد سيف الدين فهمى ، التخطيط العلمى ، الطبعة الخامسة ١٩٩١ ،
مكتبة الانجلو المصرية ص ٣٦ - ٤٠ .

(١٥) سعيد أحمد سليمان مرجع سابق ص ٤٦ .